وكان فضل الله عليك عظيماً (*)

في مستهل هذه السنة من عمر المجلة، وعلى شذى فاتحة شهورها ربيع الأول محتوى المولد والهجرة، نذكر قول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾.

نذكر ذلك موقنين بأن لزاماً على المؤمن أن يبصر طريقه الموحشة في يوم الناس هذا؛ من خلال الفهم الواعي لهذا النداء العلوي وأمثاله من معالم الكتاب العزيز ـ وكل ما في الكتاب شفاء ورحمة، يهدي للتي هيْ أقوم ـ.

فبمقدار ما يكون من حسن تصورنا لفضل الله على نبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ واختياره أن يكون موضع هذا الفضل، وأبعاد ذلك في حياته وفي حياة الأمة، بل في حياة الإنسان على وجه العموم. . يمكن لنا أن نتصور عظيم فضله سبحانه على هذه الأمة، بأن جعلها في موطن النسبة إلى هذا الرسول الكريم، وما أثمر ذلك من اختيارها لتكون عنوان الاستجابة لرسالته، والصورة الحية الصادقة لدعوته، ذلك أن لهذا التصور البعيد عن الغبش والتمويه، و ماله من دواعي اليقظة والتنبه إلى معنى الابتلاء في حمل تلك الرسالة والالتزام بأعبائها، وأن الأمة إذا تخلت عن أن تكون على مستوى ذلك الفضل، فقد قضت على نفسها بسوء العاقبة وشقاء الدارين.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان الأول والثاني، السنة الثالثة عشرة، ربيع الأول والثاني ١٣٩٢هـ، أيار وحزيران ١٩٧٢م.

والشواهد على هذا الذي نقول ماثلة في الماضي والحاضر، لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر.

وإنما ندعو إلى وضوح الرؤية في هذا المجال بعيداً عن الغبش والتمويه؛ لكيلا تنطلي علينا الحيلة من شياطين الإنس والجن، فنسقط ضحايا الأحابيل والأضاليل، وليكون بالإمكان نفضَ الغبار الذي أثقل الكواهل، وجلاء الظلمة التي رانت على كثير من القلوب، حتى استحالت النسبة إلى الرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ نسبة تاريخية عند أفواج مبرقعة من بني جلدتنا، وضاعت في عقولهم القيم، فغدوا يصعدون نازلين وينزلون صاعدين، يصدق عليهم مثل الحجلة والغراب.. ويابئس المصير.. مصير قوم، يستعلي الهوى على الحقيقة في نفوسهم، وتبيض الشهوة وتصفر في ضمائرهم ـ إن كانت لهم ضمائر ـ وتبدو أفئدتهم ـ نتيجة الإعراض والبعد عن الالتزام بما تفرضه النسبة ـ وهي هواء خاوية إلا من أوهام لا تسمن ولا تغني من جوع.

فنبينا ـ عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ قد اختاره الله تعالى ـ وهو أعلم حيث يجعل رسالته ـ ليكون خاتم المرسلين، وائتمنه بوحي من عنده على الرسالة التي كانت جماع الخير، وعنوان الهدى، والمنهج الرباني الكريم، فنسخت شريعتها ما سبقها من الشرائع.. حتى لو كان أي واحد من الأنبياء حياً، لما وسعه إلا اتباعه ـ صلوات الله عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين ـ.. وواضح أن الله شهد لدينه بما لم يشهد لدين قبله، إذ شهد له بالكمال، وأنه أتم به النعمة، وجعله هو المرضي عنده، وذلك بما

أنزل عليه في الموقف في حجة الوداع ما نتلوه من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾. وأوحى إليه بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي حفظ من كل تغيير وتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. هذا مع كونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمياً، لم يكن يتلو من قبله من كتاب ولا يخطُّه بيمينه.

وقد رفع الله ذكره في العالمين، وأعلى قدره، وفضله على خلق الله أجمعين؛ فأنت واجد أن الله جعل له ذكراً في الأولين بما أثبت من اسمه في التوراة والإنجيل من أسمائه ونعوته، والأكثرون على أن أبرز ما فعلت يهود من تحريف الكلم عن مواضعه، إنما كان بكذبهم وإنكار ذكر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصفاته فيما بين أيديهم من كتاب. وعلى لسان سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وأكثر من هذا. فقد نص القرآن على صفة أصحابه في التوراة والإنجيل، وذلك قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

أما ذكره في الآخرين ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ: فقد قرن الله بينه وبين

اسمه الكريم في كلمة التوحيد، الكلمة الطيبة التي لا يكون المرء مسلماً إلا بها، والتي هي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، فلا يجوز قنطرة الكفر إلا بها. كما جعل المناداة باسمه جزءاً من الأذان الذي هو إعلان التوحيد والدعوة إلى الصلاة التي هي عماد الدين، فهو يرتفع كل يوم خمس مرات نداءً مستعلياً إلى هذه الفريضة فوق رؤوس الأشهاد، ودعوة إلى العبادة الجامعة، ناهيك عما يحمله وراء ذلك من المعاني البعيدة العميقة في حياة الفرد والجماعة.. وهذا في الأذان فضلاً عن الإقامة.

ونرى أن الله سبحانه قد قرن طاعة الرسول بطاعته، وجعل معصيته ـ والعياذ بالله ـ معصية لجبار السماوات والأرض ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾. كما جعل محبته واتباعه من محبته ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾. بل جعل بيعته من بيعته: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ وما أكثر النصوص الدالة على هذه المعاني مجتمعة ومفترقة.

ولقد كان من مظاهر الفضل والتكريم: أن ذكره في كتابه على عدد من الأحوال والصور، فجاء ذكره باسمه الصريح ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ**﴾. وذكره بوصف النبوة كما ذكره بوصف الرسالة إخباراً، وفي حالة الغيبة والخطاب، ولكل حالة من الإخبار والخطاب بالاسم الصريح أو وصف النبوة أو الرسالة معنىً أشرنا إليه في موضع آخر من هذا العدد عند الكلام عن فواتح سورة (الأحزاب). ترى ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ**

﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ . ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ . ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ . كما ذكره بوصف العبودية الخالصة لله الواحد سبحانه : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ . ومما يستوقف الناظر في كتاب الله أن المولى عز وجل ذكر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعظمة خلقه حين قال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ . وأي فضل وراء هذا الفضل؟ كما ذكره موصوفاً بالرأفة والرحمة للمؤمنين : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . وبرحمته للناس أجمعين وأن ذلك مرتبط بالرسالة الموحاة إليه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ . وجاء القرآن على ذكره بوصفه مزكياً للنفوس معلماً للكتاب والحكمة . . والمنصفون المنصفون من الذين عانوا من أمور الإصلاح ربما قدروا هذه القضية قدرها ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ . كما ذكره بوصفه مخرجاً للناس من الظلمات إلى النور . وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ الشاهد والمبشر والنذير والسراج المنير . وذكره بأنه شهيد على أمته ، وبأنه صاحب المقام المحمود ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وعسى هنا للتحقيق لا للترجي .

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن الله أعطاه خمساً لم يعطها أحد من قبله ، فقد نصر بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت له الغنائم ولم تحل لأحد قبله ، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ، وأوتي الشفاعة ـ وهي الشفاعة العظمى التي ثبت أن الرسل الكرام ـ عليهم السلام ـ يعتذرون عنها يوم القيامة ـ وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث ـ عليه السلام ـ إلى الناس

كافة، مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾. وناهيك بعموم الرسالة وتخطيها حدود الزمان والمكان والجنس من فضيلة.

أما عن أعلام نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ: فحدث ولا حرج، ففيما وراء القرآن الذي جعله الله معجزة خالدة أبد الدهر يعجز الأنس والجن عن أن يأتوا بشيء من مثله ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾. فيما وراء القرآن، قد جمع الله لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما فرق في الرسل ـ عليهم السلام ـ من قبله، حتى المعجزات التي أجريت على أيديهم أدلة على صدق رسالتهم والتي لا يعرف ثبوتها وصدقها اليوم إلا من القرآن، آتاه الله مثلها كما ثبت في القرآن والحديث الصحيح.

فإذا تجاوزنا شرط التحدي بالمعجزة نجد أن القرآن قد أثبت للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المعجزات ما شاء الله. فتراه أثبت في سورة الإسراء «الإسراء»، وفي سورة النجم «المعراج»، وفي سورة القمر «انشقاق القمر».. إلخ. ونحن هنا مع ظواهر النصوص، فالأخذ بالظاهر هو الأصل إلا إذا قامت قرينة صارفة، ولا قرينة هنا.. ولسنا بسبيل أن نفند آراء بعض المنهزمين الذي يجعلون التأويل هو الأصل هرباً من إثبات المعجزات إلا في أدنى حد يتوهمون أنه مما يرضى عنه العقل، وما دروا أن هذا أول الوهن، وأن المسلم من وراء النصوص، فهي المتبوعة لا التابعة لعقل زيد أو عمرو، ولا لهوى فلان أو علان..

وللناظر في أعلام نبوته وما كان من معجزاته في المظان من السيرة والحديث يجد الوقائع التي تحملها الروايات الموثقة، ونحن نجتزئ بالإشارة إلى بعض من ذلك:

فقد نبع الماء من بين أصابعه، فشرب منه العسكر كلهم وهم عطاش وتوضؤوا كلهم، كل ذلك من قدح صغير بلغ من ضيقه أن النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يتمكن من أن يبسط يده المكرمة فيه. وأطعم النفر الكثير في منزل جابر وفي منزل أبي طلحة ـ رضي الله عنهما ـ يوم الخندق. وحنّ إليه الجذع الذي كان يخطب إليه؛ إذ عمل له المنبر حتى سمع منه جميع الحاضرين مثل صوت الإبل، فضمه إليه، فسكن. ودعا اليهود إلى تمني الموت وأخبرهم أنهم لا يتمنونه، فحيل بينهم وبين النطق بذلك، وهو ما نص عليه القرآن بقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾. وأنذر بأن عثمان تصيبه بلوى وله الجنة. كما أخبر بأن الحسن بن علي رضوان الله عليهما سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين، فكان كل ذلك. واتبعه سراقة يوم الهجرة فساخت قدما فرسه في الأرض، وأنذر بأن ستوضع في ذراعيه سوارا كسرى فكان ذلك. وأخبر أصحابه يوم بدر بمصارع صناديد قريش، ووقفهم على مصارعهم رجلاً رجلاً، فلم يتعدّ واحد منهم ذلك الموضع. وأخبر ـ عليه السلام ـ بأن طوائف من أمته يغزون في البحر، وقال لأم حرام بنت ملحان: أنتِ منهم.

فكانت منهم، وصح غزو طائفة من الأمة في البحر. ومسح ضرع شاة فدرّت، فكان ذلك سبب إسلام عبدالله بن مسعود، وحصل ذلك مرة أخرى في خيمتي أم معبد الخزاعية وهو في طريقه ومعه أبو بكر مهاجرين إلى المدينة. وأخبر فاطمة ابنته ـ رضي الله عنها ـ بأنها أول أهله لحاقاً به فكان الأمر كذلك. وأنذر الناس بموت النجاشي، وبين الحجاز والحبشة ما بينهما من البحر الملح ومسيرة أيام في البر، وخرج هو وجميع أصحابه إلى البقيع فصلوا عليه فوجد أنه قد مات في ذلك اليوم نفسه إذ ورد الخبر بذلك، وغير ذلك.. ولسنا هنا بسبيل الاستقراء.

ولكن الذي وراء ذلك ما كان من عظيم توفيق الله تعالى بأن كان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ على مستوى القيام بحق فضل الله عليه، فقد قام بأعباء دين عجزت البشرية أن تقوم بأعبائه وتفي بالتزاماته إلا مجتمعة. فقد انهزمت أمام إيمانه وإرادته ـ فداه أبي وأمي ـ كل المعوقات والصوارف، وكل ما اعترض سبيله من رغب ورهب، تجد ذلك على نسق واضح المعالم، في العهدين المكي والمدني حتى أدى الأمانة خير ما يكون الأداء وبلغ الرسالة على أفضل وجه وأكمله، ونصح للأمة وأمسك الزمام بكلتا يديه، فرسم للإنسانية معالم سعادتها في الدارين، أن لو استقامت على الطريقة، ووضعت كل طاقة من طاقات الإنسان في مكانها الطبيعي منطلقة من الإيمان بالله وإخلاص العبودية له.

أما بعد: فقد كان من حفظ الله لكتابه ـ على ما لهذه الكلمة من أبعاد ـ أن

حفظ لها حديث النبي وسيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك واحد من النداءات التي يجب أن تصيغ الأمة لها السمع، حازمة أمرها على تحويل الشراع واستئناف الطريق استجابة لله وللرسول.

والخطوة الأولى في هذ الاستجابة أن تذكر أن الله تبارك وتعالى حين أكرمها بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وأقام منها أمة وسطاً ليكون أبناؤها شهداء على الناس، ويكون الرسول عليهم شهيداً. . إنما كان ذلك بنسبتها إلى هذا النبي الكريم، واستجابتها لدعوته الصادقة الخيّرة في إيمانها وعملها وسلوكها. وامتحان الصدق في هذا أن تنعكس هذه الأمور على التربية والإعداد والخضوع لقوله تعالى: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾. وعندما نقول: نسبتها إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإننا نعني ما نقول، فإذا كان الله جلت حكمته قد أكرم عبده ونبيه محمداً بما لا يسع واصفاً وصفه أو تحديده، إننا بمقدار ما ندرك ذلك، يمكن أن نكون على اليابسة في إدراك عظيم فضل الله على هذه الأمة، حين وصلها بأسباب النسبة إلى من خاطبه بقوله: ﴿**وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾. وعنوان شكر الأمة لهذه النعمة أن تنظر إليها من وجهيها البارزين اللذين أولهما: التكريم. وثانيهما: الشرعة والإلزام. فتكريم الله تعالى لهذه الأمة بخصائص لم تحظ بها أمة في الدنيا، لا يعني أن يعقب ذلك نوعاً من المفاخرة الجوفاء العارية عن العمل، وحمل النفس على

الالتزام. كما لا يعني ما نحن مبتلون به في أكثر أصقاع عالمنا الكبير من الرضا بذلك النسب التاريخي بعيداً عن تقديم أي برهان على صدق دعوى النسب، مع أن أبسط القواعد التي يؤمن بها العقل السليم تشير إلى صدق قول القائل:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها ببينات أصحابها أدعياء

فهما خطان متلازمان: التكريم والإلزام، ولكل منهما مقتضياته ومستلزماته على صعيد الفرد والجماعة، وعلى كل ميدان من ميادين الحياة، ومن الإنصاف أن تسخر المعرفة والطاقات والكفاءات في هذه السبيل، لنكون أحق بالمكرمة وأهلها، وإلا كنا كحاطب ليل، أو كمن يخبط خبط عشواء، وحق علينا قول الله تعالى: ﴿**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾.

هذه كلمات نزجيها لقرائنا الأحبة في فاتحة السنة الثالثة عشرة في «حضارة الإسلام» راجين من الله تبارك وتعالى توفيقه للعمل، وأن يجمعنا دائماً على مرضاته ويسلك بنا سبيل من يحبهم ويحبونه. وإنا لنأمل أن نكون على العهد - إن شاء الله - بالكلمة المؤمنة الصادقة والفكرة البانية الواعية مستعينين بالله عز وجل، ثم بمعاونة أولئك الإخوة الذين يمدون المجلة بالثمرة الطيبة من فكرهم وإنتاجهم، وما يبذلون من جهد، وما يتأجج في صدورهم من رغبة صادقة في أن تتابع المجلة طريقها بقوة واستمرار. شكر الله لهم وأجزل لهم المثوبة. وشكر الله لكل أولئك الذين يؤدون حقوق المجلة الأدبية والمادية، وألهم الخير من لا يذكرون المجلة إلا

عندما تصل إليهم على استحياء بعد أن أضنتها وأخرتها عن موعد الوصول عقبات الصدور ومشقات الطريق.

وإننا ـ في تفاؤل واثق مطمئن ـ نعد قراءنا أن نعمل ـ حدود مقدورنا ـ على أن تصدر المجلة في موعدها المحدد، في ثوب قشيب، يضم القديم الأصيل والجديد النافع. وذلك كائن بعون الله وتوفيقه.

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن سهلاً إذا شئت. والحمد لله رب العالمين.

حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به (*)

ترى أية دهياء دهت أمة القرآن، حتى كادت تستسلم لليأس القاتل، وتلقي عصا التسيار في كهف من فقدان الثقة وخيبة الرجاء!!!

هل الأمر منوط بأن الإسلام قد استنفد أغراضه؟ إنا لنعوذ بالحي القيوم الذي عنت لعظمته الوجوه أن نقع فيما لا يقع فيه إلا زائغ مهين، أو جاهل مغفَّل.

إن الإسلام وهو دين العلم والمعرفة والجهاد.. تشد هذه الأمة إليه عقيدة التوحيد وشريعة الكرامة، وسلوك الطهر والنقاء، ويربطها بأمجاده ووقائعه تاريخ كان على الجملة ـ بحمد الله ـ أصدق تاريخ قدم للإنسانية دنيا من العمل والحركة والبناء الحضاري القويم، من كل أمر تنعكس عليه مبادئ الإسلام التي كانت المحور في حياة من نهض بعقيدتهم وجهادهم ومعرفتهم هذا التاريخ.

وإذا وقفنا عند قول الشاعر: «وبضدها تتميز الأشياء» أذكرتنا الوقائع التي تمثل بنيتنا الحضارية ومنها قول عمر: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أُمَّهاتم أحراراً» ما تعانيه الإنسانية اليوم تحت وطأة الجاهلية التي تسخر المعرفة للفتك والتدمير، وعدوان القوي على الضعيف، والتمالؤ الدولي على حقوق الشعوب، حتى نال أمتنا ما نالها، والعدو الماكر يستشري بلاؤه، وكثير من النفوس تضعف أمام الهجمة الضارية التي لا ترعى في حق إلاً ولا ذمة.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان الثالث والرابع، السنة الثالثة عشرة، جمادى الأولى والآخرة ١٣٩٢هـ، تموز وآب ١٩٧٢م.

ولكن هل هي نفثات مصدور نمر بها أو تمر بنا متحسرين؟! أم أن القضية قضية سؤال ينفذ إلى العقول جوابه: وكفى الله المؤمنين القتال؟ الأمر في نظري ليس هذا ولا ذاك. الأمر يحتاج إلى شيء من الجرأة على الاعتراف بالحقيقة على ما في ذلك من مرارة تضعف عن معاناتها بعض النفوس.. وإذا كانت القضية متعددة الجوانب عميقة الجذور لها خلفيات تاريخية متعبة.. فإن علينا أن نولي الجوانب كلها ما تستحقه من اهتمام وإدراك عميق.. ولعل من الخير أن نشير هنا إلى بعض من إسهام أبناء الإسلام في عملية الانحسار الرهيبة حيث الجفوة بين الدين وأتباعه في إطار العناوين..

فكثيرة هي تلك الآيات الدالة على أن الإسلام هو الدواء الناجع لأدواء هذه الأمة، والمثابة التي لا مثابة غيرها حين تصحو الإنسانية من سبات، وتبصر الإسلام على حقيقته كما أنزله الله، بعيداً عن افتراء المفترين، أو تزييف الجاهلين والمغفلين.

ولكن وقفة واعية متدبرة أمام ما تلح به آيات الكتاب وأحاديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من وجوب أن يكون للإسلام وجود عملي حقيقي في حياة الناس يتعدى الألفاظ وما تنطوي عليه الصدور: يفترض أن تمنحنا بوادر الإنصاف في الحكم والجرأة في النقد الذاتي.

وهناك نجد لزاماً أن ننصف هذا الإسلام من أنفسنا، لنتجاوز الحياء المصطنع، ونرى أن جانباً من جوانب المشكلة بالنسبة للإسلام وسلطانه في الأرض يكمن ـ دون تجاهل لما يقترفه الظالمون ـ في تصرفات كثير من المسلمين، ومقدار إيمانهم ـ على الحقيقة ـ بالإسلام الذي ينتسبون إليه في

سجلات النفوس، إيماناً يشمل الأبعاد كلها، ويحمل على الالتزام الجاد الذي ينبو عن الشهوات وأمراض القلوب. إنها ـ وايم الله ـ صورة مشوهة مقلوبة مفزعة ـ تلك التي نقدمها منسوبة إلى الإسلام على صعيد الوطن الكبير بما يكون من سلوك، وما يكون من مواقف.

وأخطر ما في هذا الباب ـ على صعيد الفكر والسلوك ـ تصرفات أولئك الذين تدق نفوسهم وقلوبهم مطارق الهزيمة، فهم مهزومون داخلياً، وإن بدت أشكالهم على الحال التي تذكرك بقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾.

إنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الإسلام وهو بمثابة عنوان، ولكنهم غير قادرين على متابعة الطريق في ظله على الحقيقة ـ هذا إن أحسنا الظن ـ لأن الإسلام كما هو معلوم بداهةً: إيمان وعمل، والتزام وجهد وسلوك، وهم في غير هذا، فتراهم إذا قالوا قالوا مداهنين، وإذا كتبوا كتبوا متأولين. ليس همهم أن يعودوا بأنفسهم، أو بالناس إلى ساحة الدين نقياً طاهراً بعيداً عن أوضار الجاهلية ومساوئ التغيير والتبديل، منزهاً عن أن يكون في خدمة الانحراف وإضفاء الصبغة الشرعية على ما هو غير مشروع، ولكن همُّهم ـ وهم في موضع الكلمة المسموعة أحياناً ـ أن يوجدوا لأنفسهم وللآخرين ما يسوغ البقاء على الحال الظالمة المنحرفة التي هم عليها، من بُعد عن المفهومات الحقيقية للدين، وجفوة للسلوك الذي رضيه الله لعباده، ودعا إليه بقوله وفعله رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتبعه على ذلك أصحابه

ومن تبعهم بإحسان، ورسَّخه في عقول الأمة وضمائرها عمل أئمة الهدى من أعلامنا رضوان الله عليهم أجمعين.

فالنصوص في نظرهم لابد أن تفهم من خلال ذلك المنطق، إنهم في القاع، فلابد أن تشد الكلمة إليهم يُنطقونها بما لا تنطق ويحملونها ما لا تحمل، يقطعون الكلام عن أسباب النزول إن كان قرآناً، وعن أسباب الورود إن كان من الحديث، ويغمضون أعينهم عن الإطار العام الذي يلف النصوص، وما كان من ناسخ أو منسوخ، وما إلى ذلك مما لابد منه لسلامة الفهم وإدراك مدلولات الكلام، ففي الجعبة أمور محدّدة مفروغ منها لابد أن تخضع لها تلك النصوص وتطوَّع لخدمتها الوقائع. وفي النفس قوالب قد انتهى أصحابها من تحديدها وحساب فراغاتها، لابد أن تحمل النصوص لملئها وتسخَّر لتكون شاغل الفراغ فيها.

والعكس هو الواجب أن يكون بالنسبة للمسلم، فشعاره دائماً في مثل هذه القضايا قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**]. وتقود خطاه دائماً تلك الكلمات النبوية التي يفرق من هول مخالفتها المؤمن ـ ويالقلب المؤمن كم يرتعد لمخوفات الكتاب ونذر السنة ـ تلكم هي قول النبي صلوات الله وسلامه عليه: [**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**].

فما بالك إذا كانت القضية على صعيد البيان والفتوى والتعليم؟! إن مقتضى الإيمان والورع يستدعي حيطة أكثر ومخافة من الله أوفر بحيث يكون

نصب عينه قول النبي ـ صلوات الله عليه ـ: [**فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه**]. وذلك ما دعا الأئمة الأولين ـ رضوان الله عليهم ـ إلى أن يكونوا على حال هي غاية الغاية في أداء أمانة العلم ومراعاة حق الله فيه، فقد جاء عن محمد بن المنكدر ـ رضي الله عنه ـ قوله: «العالم بين الله تعالى وخلقه فلينظر كيف يدخل بينهم». وروي عن عطاء بن السائب أنه قال: «أدركت أقواماً يسأل أحدهم عن الشيء فيتكلم وهو يرعد». إنها أمانة العلم والشعور برهبة الموقف أمام الله عز وجل، حتى قال الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ «لولا الفَرق من الله تعالى أن يضيع العلم ما أفتيت، يكون لهم المهنأ وعليَّ الوزر».

ألا إنها واحدة من المشكلات التي يعاني منها العالم الإسلامي اليوم.. بؤر تسيء للإسلام أكثر مما يسيء إليه أعداؤه، وخصوصاً عندما تطرح القضايا والفهوم المنحرفة التي تقوم على تسويغ الانحراف تحت عناوين دينية مثيرة تغرِّر بالقارئ العادي من المسلمين.

وهكذا يكون من أوليات النصفة لأنفسنا ولما ندعو إليه، أننا عندما نريد أن ندعو إلى الإسلام، أو ننعي على أعدائنا محاربتهم للإسلام، لابد أن نضع في حسابنا أن جانباً كبيراً من المشكلة يعود إلينا نحن في داخل أنفسنا، ومن هنا جاء القرآن وجاءت السنة بعلاج الأمر من داخل النفس لا من خارجها.. وتساوقاً مع هذه الطريقة الربانية كان لزاماً أن يكون العاملون في حقل الدعوة ـ خصوصاً منهم المربين والمدرسين والإعلاميين ـ إن وجدوا ـ والباحثين ـ على ذكر من

ذلك، يعملون على هديه في أنفسهم وفيمن ولاهم الله أمرهم، ورصيدهم كبير في مدلولات الكتاب والسنة، وسير أعلام هذه الأمة، مع الاستعانة بالصالح من وسائل التربية وعلم النفس. . إن الرصيد كبير في الدخول إلى أعماق الفرد وعلاج هذه المشكلة مشكلة الانهزام والوقوع في شرك وثنية الرغبة والرهبة، حتى يصبح هذا الفرد على حال تنعكس فيها دعواه على سلوكه وجوارحه وتطلعاته واهتماماته، فيكون مستسلماً لله عز وجل، بكل ما تحمل كلمة الاستسلام لله من أبعاد، وبما تمدُّ النفس من معطيات.

أما إذا بعدنا عن هذه الساحة ناسين معنى الإسلام الحقيقي، غافلين عن معنى قول الله جل وعلا: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ فإن بمقدور من يتسم بسمة العلم في عنوان أو منصب، أو من أعطته الأيام عنوان البحث والدرس، أن يفتش وينقب عن الطريقة التي ألمحنا إليها يغريه علم لسانه وحذلقة بيانه، فيجر البلاء على نفسه وعلى الآخرين ويجد عنده مرضى القلوب مبتغاهم، ناهيك عن تشكيك غيرهم والعياذ بالله، وما أكثر ما تخدم تأويلات النصوص وتسخيرها للانحراف وتطويعها في خدمة واقع جاهلي - وتحت عنوان ديني - ما أكثر ما تخدم أعداء الأمة وتحارب قضاياها. . عندما تسهم في الظلم والضياع، وتضعف القلب والعقل والساعد.

مرة أخرى. . لابد أن تمتد اليد الحانية المخلصة الواعية إلى هذه النفوس فتصلح من شأنها وتعالجها بتربية الإسلام والتزكية، كيما تحول بين الناشئة

وبين أولئك الذين صلبت عودهم على الأذى، واستمرؤوا تأويل النصوص والوقائع تأويلاً باطلاً ينبو عن طبيعة الإسلام، وعن جو النص، وملابسات الوقائع، وما يكون من ناسخ أو منسوخ، وعن الكيان الخلقي الذي حصل فيه ما حصل على عهد النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

نعم، وكيما توجد القاعدة الصلبة التي يكون الفرد فيها مسلماً بعنوانه وحقيقة سلوكه، وطريقة بحثه وفهمه لما أنزل الله ولما جاء عن رسول الله، يذيب بحرارة إيمانه كل ما يكون من معوقات، وكل ما يكون من تسويلات الهوى والنفس والشيطان، إذا رأيته ذكرت قول الله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم**﴾. وصلى الله وسلم وبارك على من الخير في أن يكون هوى كل مسلم ومسلمة تبعاً لما جاء به وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم اللقاء.

بين الانفصام.. والاستجابة (*)

لعل من أحب الأمور إلى نفس المؤمن اليوم، وأدخلها في صعيد الحس بواقع الأمة، أن يرى واحدة من البوارق التي توحي بأن خطوة تحول داخلي في أعماق الفرد المسلم قد آذنت بالظهور. . ونعني بالتحول ذاك الذي يبدو وهو عنوان استئناف لطريق الالتزام، والمؤاءمة الصادقة بين العقيدة والسلوك. . ذلك لأن العقيدة بالنسبة للمسلم الذي يدرك معنى «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وما لها من أبعاد وأطر، يفترض بداهة أن تكون هي منطلق العمل وقاعدة التفكير. وإنما كانت على هذه الشاكلة في دعوتنا؛ لأن المعنى اللاهوتي المعروف عند غيرنا، بعيد كل البعد عن هذه الساحة؛ لما أن للإسلام نظرته الشاملة للإنسان والكون والحياة، بوصف ذلك بُعداً من أبعاد «لا إله إلا الله محمد رسول الله». فالإيمان غير جائز أن ينفصم عن العمل، أو أن يتجافى مع السلوك. . وإلا كانت التصرفات كلها أشبه بشجرة بتر ساقها عن جذرها فانقطعت عنها الحياة، وبئس المصير ما تؤول إليه حالها من بعد. ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. وإذا كان الأمر كذلك فليس بدعاً أن تكون البارقة التي نلمح إليها من أحب الأمور إلى نفس المؤمن، لأن الظاهرة التي عانينا منها حيناً من الدهر، وما نزال نعاني منها اليوم - مما عاد علينا بأسوأ العواقب - هي ظاهرة الانفصام عند الفرد والجماعة - إلا من رحم ربك - بين

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان الخامس والسادس، السنة الثالثة عشرة، رجب وشعبان ١٣٩٢هـ، أيلول وتشرين الأول ١٩٧٢م.

العقيدة والالتزام بموجباتها، حتى بات ذلك وكأنه طابع يطبع حياة كثير من المسلمين في عالمهم الكبير، فالعقيدة وما توجبه: في جانب، والالتزام الذي هو صورة عن التصديق والقناعة والاطمئنان إلى الإيمان ومعطياته في عالمي الغيب والشهادة: في جانب آخر.

وإذا وضعنا هذه الظاهرة التي أصابت من الأمة مقتلاً في إطارها الصحيح الذي هو نسيج شمول دعوة الإسلام وشريعته، أمكن أن نتصور أبعاد خطورتها، وأن نفسر الكثير من أحداث التاريخ ووقائعه في ضوء هذا التصور. ولولا خشية الإملال لألححت على هذه النقطة أكثر وأكثر، لأن وضع الأمور في نصابها مؤذن بسلامة الاتجاه سعياً وراء الحل المرتجى والغاية المنشودة، وعون على التغلب على ظاهرة لا بد من التغلب عليها.

إن الانفصام بين العقيدة والسلوك ـ ضمن هذا الإطار من شمول دعوة الإسلام ونظرته الكلية للإنسان والكون والحياة ـ يبعد بك عن النظرة الضيقة التي يضيق معها مفهوم السلوك المتوائم مع العقيدة، حتى ينحصر في ترديد الشهادتين على اللسان فحسب، وممارسة نوع من أنواع العبادة كعلاقة بين المسلم وبين الله عز وجل، بعيداً عن ساحة العبودية الصادقة لله في الجوانب الأخرى من الحياة، التي أولاها الإسلام ـ بطبيعة شموله وعمقه ـ ما هي جديرة به من العناية، وأعطاها مزيداً من الاهتمام، لأنه دين ودنيا، وعقيدة وشريعة، فهو دين الحياة، وهو منهج متكامل لها ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**﴾ ومن بعد: فبنية الفرد المسلم في عقيدته وفكره وقناعاته مرتبطة

أيما ارتباط بسلوكه ضمن هذا الإطار، وفي ظلال تلك النظرة الإسلامية الشاملة للحياة في جميع جوانبها دون إفراط أو تفريط.

ولعل سلامة وضع الظاهرة موضعها الطبيعي أيضاً، مما يباعد عن تصور المشكلة الناتجة عن ذلك على أنها مشكلة فردية بحتة لا علاقة لها بالجماعة من قريب أو بعيد، ذلك أن التخلخل في بنية الفرد من هذه الناحية، ينعكس أسوأ انعكاس على الجماعة، وأنى للجماعة أن تكون سليمة الأركان، راسخة البنيان، قادرة على مواجهة التحدي، ولبناتها تعاني من ذلك الانفصام الذي جرنا إلى الويلات منذ أمد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إن الإسلام ـ وهو شرعة الحكيم الخبير ومنهاجه ـ قد رعى الفرد من أجل نفسه ومن أجل الجماعة ـ بدءاً من اختيار الزوجة الصالحة [**تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس**] ومروراً بكل مراحل الحياة ومقتضياتها، في أشواق الإنسان وتطلعاته، وفي فطرته وغرائزه، وفي طبيعة تكوينه وحاجاته على وجه العموم.. وانتهاءً بموته وما يحيط بذلك وما يترتب عليه من أحكام. فكان طبيعياً في مقابل ذلك أن يضعه الإسلام أمام مسؤولياته من اللحظة التي يبلغ فيها سن التكليف، فأهلية التكليف جعلته ـ ذكراً كان أو أنثى ـ أهلاً للخطاب.. وكم تكون النتائج مذهلة، والتناقض واضحاً، إذا وقف على شفا جرف هار، فاستمتع بالمغانم، وأعفى نفسه ـ حباً بالعافية وسيراً مع الهوى ـ من المسؤوليات والتبعات، وراح لا يلوي على شيء من أحكام الله، ولا يلتزم بأمر من أمور الدين، وانصرف في تصوره وحكمه على

الوقائع إلى ساحة الجاهلية، وأقام ممسياً مصبحاً على ذلك المرض العضال الذي يستمد وجوده العفن من الانفصام المزري بين العقيدة والسلوك.

إن حرصنا على أن تضيء الحقيقة ظلام النفوس - والأمة تعاني ما تعاني - يحملنا على القول بأن الفرد الذي ينتابه هذا المرض يشكل في الأمة جزءاً من أكوام متنافرة لا تصلح للبناء، إذ لا يحركها محور، ولا ينتظمها فكر، فهي أكداس محسوبة على الأمة، ولكنها معضلة مضلة في كثير من الأحيان.. ولن نحتاج إلى كثير من الذكاء والفطانة حتى نفسر تلك النسبة العكسية بين عدد المسلمين اليوم والمحصلة الظالمة التي أعمى قتامها الأبصار والكثير من البصائر. وبعض الأمثلة في واقعنا مع اليهود، وما حصل في شبه القارة الهندية، من قريب، فيه غناء مقنع لمن أراد مقنعاً..

وإذا كان التاريخ سلسلة متكاملة الحلقات، وكان لزاماً أن نفيد من فلسفة الوقائع، متبينين إلى أي حد أسهمت في المد الإسلامي عبر العصور؛ فإن علينا أن نذكر أن القاعدة الصلبة التي قامت على كواهلها دولة الإسلام الأولى، وانتظمها بناء المجتمع الإسلامي في تجربته الرائدة، إنما صلحت لحمل العبء لأن خير ما اتسمت به شخصية الفرد والجماعة - يومذاك - ذلك التوافق المطلق بين العقيدة والسلوك، وإخضاع جميع التصرفات إلى فاعلية العقيدة على اختلاف المستويات والساحات.. حتى وصل الأمر إلى حد الحساسية من أن يكون هناك أي بادرة انفصام أو شبه انفصام بين المؤمن وبين التزامه لشرعة الله، ثمرةً للإيمان، وصورة عن العهد الذي عاهد الله عليه.

ولقد ظهر ذلك عند الفرد العادي الذي قد لا يؤبه له، وعند الحاكم والمحكوم والمرأة والرجل على حد سواء، حتى يجيء الرجل ـ وقد زلت قدمه ـ إلى الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيقول: يا رسول الله، زنيتُ فطهرني.. إن شيئاً كان يصرخ في أعماقه هو أقوى من حب الحياة، وأكبر سلطاناً من الموت. ولا يمنع نساءَ الأنصار الحياءُ من أن تسأل الواحدة منهن عن أمر دينها في أخص ما يخص المرأة، ؛ حرصاً على أن تكون عبادتها صحيحة تقربها إلى الله. وفي حالة من المغاضبة بين أوس بن الصامت وزوجه خولة يقول لها: أنت عليَّ كظهر أمي.. فتسرع باكية إلى الرسول تقص عليه الواقعة، مبتغية عنده حكم الله؛ خشية أن يكون بقاؤها في بيت زوجها مخالفاً لشرعة الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾.

وتدفع الرغبة في تحري الحلال والوقوف عند أمر الله، زوجة أبي سفيان لأن تسأل رسول الله عن شيء محدود تأخذه من مال زوجها.. موضحة له كل الملابسات.. إنها تريد أن تكون على المحجة البيضاء في كل تصرفاتها وسلوكها حتى في هذا القدر اليسير من المال.

ويحمل أمير المومنين عمر بن الخطاب الدقيق على ظهره للأطفال الجياع ويقول خوفاً من الله تعالى وتحسباً من الوقوع في دعوى من الإيمان والإخلاص لا دليل عليها: «ليت أم عمر لم تلد عمر» وأكثر من هذا: لقد كان يخشى على نفسه النفاق في حياة الرسول ـ صلوات الله عليه ـ وعمر من تعلم!!

إن هذه الوقائع في تاريخنا ـ ومثلها كثير وكثير ـ أمانة الله في أعناقنا، وحجته علينا يوم يحشر الناس لرب العالمين. ولقد يكون تدبرها بإيمان المؤمنين وعزمات الرجال، إسهاماً في تفجر جديد من أعماق النفوس نحن بأمس الحاجة إليه.. والعزيمة الصادقة عنوان وأيُّ عنوان.. ولكن لابد من القناعة الفكرية الواعية كيما تؤدي العزيمة دورها من جديد.. وعندما نقول: «الفكرية». فإنما نعني: ما به تكون العقيدة دم الفكرة الدافق الذي يمدها بالحياة؛ فهي ليست جماداً مبتوتاً عن عنصر الحياة، وليس صاحبها مومياء في متحف.

إنها الفكرة التي تجعل الفرد يحسُّ بأعماقه أن سعيه وراء المطابقة بين العقيدة والعمل حاجة طبيعية ـ بل قل ضرورة ـ هي بالنسبة إليه كالرئة للتنفس والقلب للحياة.. إنه يحسُّ بأن هذا الأمر يمثل ذاته ويعني وجوده.. وانتهاك أي حرمة من حرمات الله: انتهاك لحرمته وذاتيته وكرامته. وعندما يولي ظهره لمقاييس الإسلام ويرضى بما يكون من جفاء الأمة لقرآنها ومفهوماتها الأصيلة، وكفرانها لقيمها التي كانت الإشعاع الحضاري، والبذرة الصالحة لتكريم الإنسان وإسعاده في الدنيا والآخرة.. عندما يفعل ذلك يشعر وكأنه غير موجود، فهو في عداد الموتى وإن كان يمشي على الأرض برجلين، ويشارك ذوات الأربع بسد نهمته من جوعة المعدة وغيرها من الجوعات.

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

ألا إن الذين تثقلهم أوزار الإنفصام بين العقيدة والسلوك: هم أضعف من أن يقفوا في وجه التحديات.. والطريق التي لا حول عنها لعاقل تقض مضجعه مرارة الأسى على ما نحن فيه، مسارعةٌ لا تعرف التلفت إلى العمل بما يدعو إليه كلام ربنا الحكيم الخبير، الكلام الذي تربى في محضنه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فصدقهم الله وعده بالنصر والتمكين ذلكم قوله جلّ وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾.

ولا والله لن تبلغ الأمة ما يريد المخلصون فيها: حتى تتحول ـ منهجاً وتطبيقاً ـ عن الانفصام إلى الاستجابة من جديد، وحتى تحزم أمرها، وتعزم العزمة التي تستعلي قوية فوق الركام وفوق العوائق، وهي إن فعلت ذلك جاءها الخير من حيث تدري ولا تدري.. ﴿**طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ ومن وراء النصر والتمكين في الدنيا جنة عرضها السماوات والأرض أعدت لمن أسعدهم الله بالاستجابة لدعوة الحياة فكانوا من المجاهدين الصابرين ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾. ولله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الدكتور/ عبدالكريم عثمان(*)

قضى الأستاذ الدكتور عبدالكريم عثمان ـ رحمه الله ـ وهو الأخ الغالي، في ريعان الشباب.. ولم يودع بابتسامته الحلوة الراضية أهله الأقربين وأطفاله الصغار وكفى.. ولكنه ودّع الكثير الكثير من قلوب أحبته التي حملت له طوال حياته أكرم معاني المودة والأخوة والتقدير..

قضى «أبو علاء» وذلك أوسع من الألقاب والعناوين ـ وهو في أوج القوة ونضرة الحياة على طريق الدعوة إلى الله، وتبصير المسلمين بدينهم، ودعوتهم إلى تبين أمورهم، لإدراك ما يحيط بالجيل الناشئ من مكائد ومؤامرات.. وإحاطة العاملين في حقل المعرفة والدعوة بطبيعة المعركة التي يخوضها الفكر الإسلامي في وقت تنوعت فيه أسلحة العدو، وتلونت ساحات هجومه على الإسلام وحضارته وذويه.

ومن هنا ومن خلال هذا التصور تبدو الفاجعة الأليمة بوفاة الأخ عبدالكريم ـ رحمه الله ـ.. فلله ما أخذ ولله ما أعطى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.. وهو المسؤول سبحانه أن يعوضنا بفقده خير العوض، إنه المعطي والآخذ.. وهو المحمود على كل حال.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان الخامس والسادس، السنة الثالثة عشرة، رجب وشعبان ١٣٩٢هـ، أيلول وتشرين الأول ١٩٧٢م.

ومن أجدر من المؤمن بأن يذكر عند فقد واحد من أحبته الذين لهم في النفس ما لهم، قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. وقوله جلت قدرته: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

والكلام في هذه الآية وارد في معرض الحديث عن محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ والأسوة بما حصل للأنبياء السابقين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ.

ألا وإن كلمات تقال على عجل ليست ـ يعلم الله ـ كفاء الأخ عبدالكريم، ولكنها اللفتة السريعة التي أرجو أن يقدرني الله على ما هو أوفى منها، بحيث يطمئن القلب إلى أن شيئاً من حق الأخ الأعز، داعيةً وعالماً وأخاً قد وضع في نصابه إن شاء الله تعالى.

ويوم تكون الأمة على الطريق البناءة كما أراد الله، مولية وجهها شطر القيم، تقدر روادها على هذه الطريق.. وبقدر ما تكون اهتمامات هذه الأمة في أن تجد من يقول الكلمة، ويرسم المنهج أو يسهم فيه، في سبيل تحقيق الغاية المثلى، تشعر بفراغ يحصل عند فقدان واحد من رجالها.. خصوصاً في زمان يعز فيه الرجال.. وعند ذلك يتجاوز الأمر حدود العواطف ليدخل في حدود الحكم العقلي وكل ما يمت إلى ما تنشده الأمة بسبب، إذ يصبح مقياس القرب والبعد بالنسبة للراحل مختلفاً عن المقاييس التي اعتادها الناس.

وأشهد . . لقد علمت في صحبتي المديدة المتقطعة للفقيد ـ رحمه الله ـ . الكثير من المعاني التي هي من سمات الداعية المؤمن الذي ينشد الحقيقة، ويسعى في مرضاة الله عز وجل . . ولقد كانت آخر حقبة طويلة قضيناها معاً عام ١٣٨٢هـ في القاهرة وكان منها شهر رمضان المبارك بما يحمل من الخير والخصب، ونفحات القرآن والرحمة والمغفرة . . فلم أر فيه ـ أكرمه الله بمغفرته ـ إلا النفس الهنية الراضية، والتعالي على محقرات الأمور، والحرص على صحبة كتاب الله تعالى تلاوة وتدبراً .

وكان ـ إلى سلوكه الذي يسعى جاهداً أن يكون متوائماً مع الإسلام ـ لا ينسى دعوته التي يرى فيها شريان الحياة ونبض القلب . وكان لها دائماً من اهتمامه نصيب كبير، والحمد لله . يتمثل ذلك في نظرات فاحصة، وحرص على سلامة القدوة، والتزود الدائم بما يكون فيه القدرة على العطاء عندما يدعو واجب الدعوة والعطاء .

وفي مجال العلم . . كان فقيدنا مثال الجد والسهر والدأب في تواضع جم، وتلمُّس لأبواب الإفادة، ونكران الذات .

والذي يستوقف الناظر ـ وهذا قليل في الناس ـ أنه في سبيل استكمال ما كان يشعر بأنه فاته من قبل كخلفية واجبة لدراسته عن الغزالي والقاضي عبد الجبار . . كان لا يني يسأل ويستشير ويناقش ليصل إلى الحقيقة، عارفاً لكل أخ قدره، تاركاً في المسألة المطروحة لصاحب الاختصاص أن يقول كلمة الفصل . . وكثيراً ما كان يحصل هذا . . حتى في قراءة عبارة أو كلمة

في مخطوطة، حيث يتوقف على ذلك فهم قضية من القضايا، أو تجلية أمر من الأمور.

وبين يدي الآن - وأنا في طريقي إلى السفر ومغادرة الدار - مجموعة من كتب أبي علاء - رحمه الله -، فيها: «سيرة الغزالي»، وهو بحث أعده لمؤتمر المجلس الأعلى للآداب والفنون منذ أكثر من عشر سنوات. «والدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص» - وهو رسالة الماجستير -، و«ترجمة القاضي عبدالجبار الهمداني» و«تثبيت دلائل النبوة» الذي حققه وهو للقاضي - رحمه الله -. و«نظرية التكليف، آراء القاضي عبدالجبار الكلامية». وهي رسالة الدكتوراه. و«الثقافة الإسلامية»[1] وهو محاضرة ألقاها في الرياض. و«معالم الثقافة الإسلامية»، و«نظام الإسلام السياسي» مما ألقاه على طلابه في جامعة الرياض. أقول: بين يديّ هذه المجموعة من آثاره، ولست بسبيل دراستها أو دراسة واحد منها الآن في هذه العجالة.. فلذلك وقت آخر.

ولكن الذي أود إثباته أن خطاً ينتظم آثاره جميعاً، سواء منها ما كان باكورة عمل كما في «سيرة الغزالي» أو ما كان ورقة امتحان كما في رسالتي الماجستير والدكتوراه، أو ما كان نتاج تدريس أو محاضرة عامة، أو بحث.. ذلك الخط هو التطلع إلى الحقيقة، والسعي وراء المعرفة، والحرص

(١) وترى الحديث عن الكتاب في مكان آخر من المجلة في دراسة أعدها الأخ الأستاذ محمد منلا غزيل أكرمه الله.

على أن يكون فيما يعمل مرضاة لله عز وجل . . صحيح أنك قد لا توافق عبد الكريم أجزل الله مثوبته ، في كل ما يقول ، أو قد ترى أن أمراً من الأمور كان يعوزه النضج أكثر مما فعل ، أو مخطوطاً ربما احتاج إلى خدمة أكثر . . ولكن . . أيُّنا لا تجد عنده ما هو كذلك ، وأي امرئ يتعرض لخدمة دعوة الإسلام عن طريق المعرفة والتوجيه بلسانه وقلمه ، ثم لا تبصر فيما يقدم آثار المعركة الضارية التي يخوضها العاملون ضد الهجمة الشرسة من أعداء الإسلام . . علماً بأن إنتاج الأخ عبدالكريم ـ رحمه الله ـ هو من الوفرة بحيث يُنظر إليه نظرة معينة عند التقويم والنقد .

وإنك واجد ـ فيما وراء ذلك كله ـ أن إطاراً عاماً من الإخلاص والمعرفة ، وصفاء النفس ، كان يلف سلوك عبدالكريم في حقل الدعوة والبحث العلمي . . وحسبه بذلك زلفى إلى الله ، وطريقاً إلى مرضاته سبحانه .

ولكم يتعثر القلم ، وتضطرب النفس ، ويجب القلب . . عند تذكر الحادث الجلل ، حيث اللوعة تلف الكلمة ، والأسى يجلل ما يكون من خواطر وذكريات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولكن . . ولكن لوعة القلب لا تطفئها دمعة ترسل ، ولا كلمة تقال ، والكبد المقروحة بفقدان الرجال لا تجعلها صفحة من الرثاء كبداً ليست بذات قروح ، غير أنه الرضا عن الله عز وجل ، والطمأنينة لقضائه وقدره ، والإفادة من صوت النذير أن أخاك إذا ارتحل فأعد نفسك لمثلها وكأن قد . . والعاقل كل العاقل من يرى في ارتحال أخ قريب حبيب مجيباً نداء القدر ،

دعوة لليقظة والتنبه، وتحذيراً من الغفلة والاستهتار والاستكانة لحب الدنيا والعافية، ونذيراً من نذر الأجل المحتوم أن ما قضاه الله كائن، ولا حيلة في ذلك ولا شفاعة. . ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ والساعة هنا أقصر ما يمكن أن يتصور من الزمن.

أذكر يا أبا علاء حرقتك على الدعوة وأهلها منذ تلك الأيام البعيدة، وأذكر صفاء نفسك، وأذكر ابتسامتك المشرقة علامة الطمأنينة والرضا. . وأذكر ما كان بيننا من التشاكي ألماً على واقع المسلمين، وكيف يمكن أن تبرز إرادة التغيير صورة حية في العمل والتطبيق. . وأذكر ما كنت تحرص عليه من تدريب النفس على أن يحب المرء لله ويبغض لله. . أذكر ذلك كله، فتأخذني اللوعة ويستخفني الحادث الجلل. . ثم أعود إلى معاني الإيمان أستذكرها، وإلى معالم الرضا أمرّ بها على القلب رويداً رويداً. . فأشعر ببرد الطمأنينة، وأن ما عند الله خير لعباده الأبرار من النعيم المقيم لا يقاس بما في هذه الدنيا الفانية الزائلة من عناء ونصب، ومصائب يذوب لهولها القلب من كمد. . وتكاد تذهب نفس المؤمن لشدتها حسرات.

فانعم أيها الأخ الغالي بكرم الله وعطائه. . فللذين أحسنوا الحسنى وزيادة، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. وأرجو أن تكون في عداد من قال الله فيهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

رحم الله أبا علاء رحمة واسعة، وعوضنا بفقده خير العوض وكان لأهله وولده من بعده، وكتب له ثواب المجاهدين الأبرار، وأسكنه الفردوس الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.. والحمد لله على كل حال.